فى أفق السياسة العالمية

بين تركيا وروسيا

ما فتئت روسيا طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تتحرش بتركيا وتنقم عليها وقوفها عند المضايق وعلى منفذ البحر الأسود تسد فى وجهها طريق الوصول إلى مياه البحر المتوسط الدافئة ، وما زالت تستعدى عليها الشعوب السلافية التى كانت خاضعة لسلطان تركيا وتناصرها سراً وعلانية ، حتى توالت على تركيا الثورات والحروب وتعاقبت عليها الهزائم ، وأخذت الولايات المسيحية تنفصل عنها واحدة تلو الأخرى ، وتداعى البنيان حتى أوشك أن ينهار كله وتصبح تركيا أثراً بعد عين ، لولا بقية من حيوية الجندى التركى الباسل ، ولولا دبيب الخلاف بين الدول الكبرى بسبب التنافس على أملاك الدولة . ولقد نشأ من ضعف تركيا وبقائها على هذه الحال اليائسة زماناً ما عُرِف فى التاريخ بالمسألة الشرقية و « الرجل المريض » .

ولو قدُر للطامعين فى ميراث الرجل المريض أن يتفقوا فيما بينهم على توزيع ذلك الميراث وتحديد مصير المضايق والقسطنطينية ما توانوا لحظة واحدة فى الإجهاز على ذلك المريض ليقتسموا فيما بينهم تركته . وقد سبق فى نهاية القرن الثامن عشر أن آنست روسيا ضعفاً حربياً من بولندة وهى جارتها من الناحية الغربية ورأت فيها تخاذلا شبيهاً بما كان فى تركيا ، فلم تتردد فى الاتفاق مع حليفتيها بروسيا والنمسا على تقطيع أوصال بولندة وتجزئتها مرة وأخرى وثالثة حتى أتين عليها جميعاً ، وانمحت بولندة من خريطة أوربا السياسية .

ولم يكن هناك ما يمنع من أن يكون هذا مصير تركيا أيضاً فى القرن التاسع عشر لولا رحمة من الله أدركت الرجل المريض ؛ فقد ظل الورثة مختلفين بشأنه حتى قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا ، فأيقن الورثة أن تركيا قد حان حينها ، وأن آخرة الرجل المريض قد دنت ، وأنه لاحرج

من تقسيم التركة واعتبار المريض كأنه لا محالة قد مات . ولم يطل اختلاف الورثة بشأن التركة ؛ فقد كانت رحى الحرب تدور طحوناً ، وكان عشرات الآلاف من المحاربين يموتون فى كل يوم ، حتى لقد بدا أن الحرب قد لا تبقى على شئ يستحق أن يورث بعد الحرب ، وأن من صالح الحلفاء أن يتناسوا أحقادهم وأن يتساهلوا فى تقسيم التركة حتى يفرغوا لأنفسهم ويثبتوا جميعاً لقتال العدو المشترك حتى يتغلبوا عليه . ولما كان إعلان معاهدات التقسيم ، والحرب لم تزل قائمة والرجل المريض لم يزل حيًّا يرزق ، مما يجافى أبسط قواعد الحياء ، فقد أحاط الحلفاء مفاوضاتهم بالكتمان وجعلوا اتفاقاتهم سرية حتى لا يظهر عليها أحد إلا بعد كسب الحرب .

وكانت روسيا أولى الدول التى خشى الحلفاء أن ينالها السلم قبل غيرها ، فأرادوا أن يقدموا لها طعماً شهيًّا يستهويها ويجذبها نحو الحلفاء إلى نهاية الحرب ، فعقدوا معها أولى معاهدات التقسيم السرية فى لندن سنة ١٩١٥ وبمقتضاها اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على أن تكون القسطنطينية والمضايق وما يجاورها من أراض من نصيب روسيا بعد الحرب ، وبذلك تتحقق

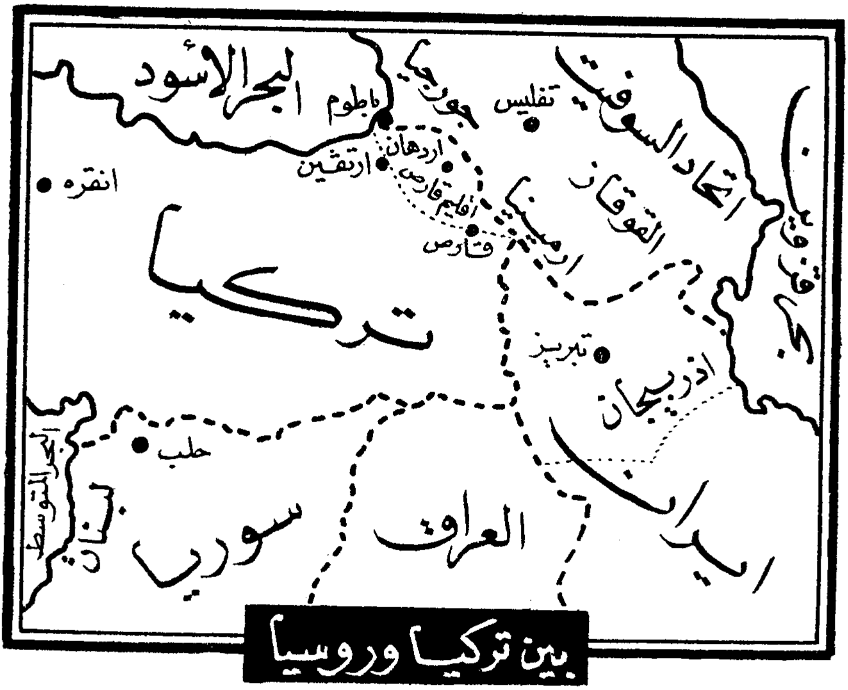

بين تركيا وروسيا

روسيا أعز أمانيها السياسية . وفى سبيل كسب الحرب ضحت كل من بريطانيا وفرنسا بما بذلتا من الجهود الدائبة فى أثناء القرن التاسع عشر لمنع الدب الروسى من التوغل جنوباً نحو البحر المتوسط .

وجاءت المعاهدة الثانية فى مايو سنة ١٩١٦ حين التفت الحلفاء إلى الجانب الشرقى من التركة ، فاتفقوا بمقتضى المعاهدة التى عرفت باسمى المندوبين الانجليزى والفرنسى على التوالى سيكس بيكو Sykes-Picot على أن تأخذ روسيا معظم بلاد أرمينية ، وأن تكون بلاد المشرق تحت نفوذ فرنسا ، وفلسطين والعراق تحت نفوذ بريطانيا . وكملت اتفاقات التقسيم بمعاهدة مع إيطاليا نالت بها جزر الدوديكانيز وأزمير وجزءاً كبيراً من الساحل الغربى للأناضول ، وباتفاق مع الشريف حسين أمير مكة على إعلان الثورة ضد الأتراك وتكوين دولة عربية تضم بلاد العرب وأجزاء أخرى داخلة فى نطاق معاهدة سيكس بيكو .

وبذلك لم يبق للرجل المريض مجال حيوى يعيش فيه حتى يلفظ نفسه الأخير سوى رقعة محدودة فوق هضاب الأناضول أبى كرم الحلفاء إلا أن يحفظوها له لتكون فيه مقبرة جنسه ومثواه الأخير .

ولكن عناية الله كانت تلحظ الرجل ، فأدركته الرحمة الإلهية على يد أقرب الوارثين إليه داراً وألد أعدائه خصومة فى الوقت نفسه وهى روسيا . ففى مارس سنة ١٩١٧ والحرب لا تزال فى عنفوانها قامت الثورة البلشفية ، فانسحبت القوات الروسية من الحرب ، وأعلن الثوار أنهم يؤمنون بالتعاون والمساواة بين الشعوب ، ويستنكرون اغتصاب الأراضى التى ليست لهم ، وفرض الغرامات الحربية ، ولا يقرون المعاهدات السرية ويتبرءون منها ومن شروطها . وكانت نتيجة ذلك أنهم نزلوا عما وُعدوا به بمقتضى معاهدة لندن السرية سنة ١٩١٥ . فلما كسب الحلفاء الحرب فى سنة ١٩١٨ وسارت مواكب النصر فى طريقها إلى القسطنطينية لم تكن روسيا فى الموكب ولم يسمح لها القدر أن ترفع رايتها على معقل الأتراك وحصن الإسلام فى ذلك الوقت ، فقد تألفت لجنة دولية لحراسة المضايق واحتلال القسطنطينية . وتلفت الحلفاء يمينا وشمالا يبحثون عن دولة تصلح للانتداب على هذه المنطقة العظيمة الخطر . فأبت فرنسا أن يكون الانتداب لانجلترا ، وتوجست انجلترا الشر من نيات فرنسا ، وكاد الأمر يستقر على الولايات المتحدة لو لم تجنح أمريكا فى ذلك الوقت إلى سياسة

العزلة الدولية ونبذت سياسة ولسون ومعه ميثاق العصبة والانتدابات . وعلى ذلك لم يكن هناك مفر من بقاء الاحتلال العسكرى والإشراف الدولى على القسطنطينية والمضايق .

وكانت معاهدة « سيفر » المشئومة فى أغسطس سنة ١٩٢٠ وفيها أقر الرجل المريض الوصية التى أعدوها له ، فقداستقل الحجاز وانفصلت الولايات العربية ، وأخذ الإغريق تراقيا وجزر الأرخبيل ، وأخذت إيطاليا جزر الدوديكانيز وجزءاً من آسيا الصغرى ، واستقلت أرمينية وكردستان ، وتسابقت إيطاليا واليونان على أزمير وغربى الأناضول فاحتلتها اليونان بمساعدة الحلفاء ، وظلت اللجنة الدولية التى تمثل الحلفاء تتحكم فى القسطنطينية والمضايق كما تألفت لجنة دولية أخرى للتصرف فى الشؤون المالية .

وبينما الرجل المريض يعالج سكرات الموت وشهادة الوفاة التى سجلت فى سيفر تتناقلها أيدى الحكومات للموافقة عليها ، إذا بروح حديدة تنبعث من جسم الرجل المريض الميت فتتقمص قائداً فذّاً من صباط الجيش التركى ينسل من غرفة الموت ماضياً فى طريقه إلى هضاب الأناضول حيث قرر الحلفاء أن تكون مقبرة الجنس التركى . ومن هذه الهضاب دوّى صوت الثورة الكمالية فى يوم من صيف سنة ١٩١٩ فكأنما نفخ فى الصور ، وكأنه يوم النشور ، فإذا الحياة تدب فى أجسام الموتى وإذا الهزيمة والجوع والعوز تتلاشى أشباحها أمام إرادة أمة قد صممت أن تحيا مستقلة عزيزة الجانب لاسلطان لأجنبى عليها وإن تألبت عليها جميع القوى الغاشمة .

عند ذلك تلاقت الثورة الكمالية فى تركيا والثورة البلشفية فى روسيا ، وإن لم يقر الترك مبادئ الشيوعية . فكلتا النهضتين كانت بعثاً جديداً لأمة مغلوبة خلقتها خلقاً جديداً ، وكلتاهما قضت على عناصر الرجعية والاستبداد واستعدت لكفاح الأجنبى الذى كان يتمنى جاهداً لو استطاع القضاء على الثورتين . وكان نزول روسيا عن معاهدة لندن السرية فى سنة ١٩١٥ قد بعث الطمأنينة فى نفوس الأتراك الكماليين فتقاربت مساعى الدولتين ، وسرعان ما اعترفت روسيا بحكومة أنقرة الجديدة ، وحل محل العداوة القديمة بين الدولتين عهد صداقة وإخاء توطدت أركانه بعقد معاهدة الصداقة بينهما فى سنة ١٩٢١ إذ اتفق الحليفان على تسوية مسائل الحدود الشرقية بينهما ليفرغا لمواجهة

القوات الأجنبية التى كانت تناوئهما من الغرب ، فاحتفظت تركيا بقارص وأردهان وارتيفان على الحدود الشمالية الشرقية ، كما استردت روسيا باطوم وضمت جورجيا وأرمينية إلى جمهوريات السوفيت .

ولما أمن الكماليون على حدودهم من ناحية الشرق سددوا ضرباتهم نحو الأجنبي ، فانجلى الفرنسيون من شرق الأناضول ، وآثر الطليان ألا يزجوا بأنفسهم فى حرب جديدة ، وبقى الإغريق ولا نصير لهم سوى بريطانيا . وكانت الدول المتحالفة قد سرحت جيوشها بعد عقد الصلح ، وكانت الشعوب قد سئمت الحرب واستنكرت محاربة الأتراك وهم فى عقر دارهم . لذلك لم يلق الإغريق من بريطانيا إلا معاونة بحرية لا تكاد تذكر إلى جانب الروح القوية المتدفقة التى كانت تسيطر على الكماليين وظلت تقودهم من نصر إلى نصر حتى دحروا الإغريق فى معركة سقاريا الشهيرة وقذفوا بهم إلى البحر ، فانجلوا عن أزمير والأناضول من غير رجعة بعد أن أشعلوا النار فى المدن والدساكر وكل ما صادفهم فى منحدرهم إلى البحر .

بعد ذلك التفت الكماليون إلى القسطنطينية والمضايق ، وكادوا يهاجمون القوات البريطانية المرابطة بها بعد انسحاب الفرنسيين والطليان لو لم يسارع الحلفاء إلى مواجهة الحقائق ومفاوضة الكماليين فى الصلح . وكان جل أمانى الأتراك أن يمزقوا شهادة الوفاة التى خطتها يد الحلفاء ضد تركيا فى « سيفر » وأن يعلنوا للعالم ميلاد تركيا الجديدة . فقر الرأى على عقد مؤتمر الصلح فى يولية سنة ١٩٢٣ فى « لوزان » البلد المحايد ، لا فى باريس ولا فى لندن .

وفى هذا المؤتمر لم يمل الحلفاء شروطهم كما أملوها على ألمانيا والنمسا فى ڤرسايل وكما اعتادوا أن يملوها على تركيا من قديم . فقد أخذ عصمت باشا ممثل تركيا الجديدة مكانه فى المؤتمر مواجها لورد كيرزون ممثل انجلترا ، وجعل يعرض مطالب تركيا ويرد على اللورد حجة بحجة حتى كسب منه الصلح . ومن العجيب أن يكون «شبين» المولود الجديد فى هذا المؤتمر هو «شيشرين» Chicherin ممثل حكومة السوفييت وهى وإن لم تكن تربطها فى ذلك الوقت بدول الحلفاء صلات سياسية أو اقتصادية قد دعيت لتبدى رأيها فى مناقشة مشكلة المضايق ، فكان ممثلها أقوى نصير لتركيا وكان هو محاميها الأول ضد الحلفاء عامة وضد بريطانيا بصفة خاصة .

وكانت بريطانيا التى ظلت طوال القرن الماضى تناضل عن استقلال تركيا وسلامة كيانها ضد روسيا ، وتنادى فى سبيل هذه الغاية بضرورة التمسك بحق السلطان فى إغلاق المضايق أمام جميع السفن الحربية منعاً لروسيا من التسلل بأساطيلها إلى البحر المتوسط — قد جاءت إلى مؤتمر لوزان تدعو الدول إلى إعلان حرية البحار وحرية الملاحة داخل المضايق، وتطلب إلى تركيا عدم تحصينها ونزع سلاحها لتكون منطقة محايدة حرة للجميع . وظاهر أن هذه النظرية الجديدة لم تكن فى صالح تركيا ولا روسيا . فحيدة المضايق تحرم على تركيا تسليحها وتعرضها لهجوم الأعداء ، كما تيسر هذه الحيدة لبريطانيا وحلفائها اختراق المضايق بأساطيلهم الحربية فى أى وقت يشاءون ، وبذلك تظل روسيا أبداً مهددة بالعدوان .

لذلك ناضلت روسيا بقوة لدحض النظرية الجديدة ولكنها لم تفلح . ولم يسع تركيا إزاء ما كسبته فى لوزان من استرداد أدرنة وتراقيا ومنطقة المضايق وعدم تقييدها بشروط حربية كالتى قيدت بها ألمانيا — لم يسعها أن تسترسل فى معارضة انجلترا ، فوافقت على سياسة الحيدة التى أرادوها للمضايق بعد أن اعترفوا بحقها فى تأمين نفسها بتحصين القسطنطينية وجعلها قاعدة بحرية بها حامية حربية قوتها ١٢,٠٠٠ جندى . وبقيت هذه الحالة قائمة أكثر من اثنتى عشرة سنة استطاعت تركيا فى أثنائها أن تفرغ لتنفيذ برنامج الإصلاح الكمالى الذى خلق من تركيا دولة فتية موطدة الأركان عزيزة الجانب ومن الأتراك شعباً جديداً ناهضاً سرعان ما استرعى العالم بنهضته وحيويته .

ولم تنس تركيا لروسيا مؤازرتها لها فى أيام محنتها ، كما ظلت روسيا تذكر بكل خير صداقة تركيا وانضمامها إلى إيران والأفغان فى معاهدات ودية مع حكومة السوفييت فى الوقت الذى كانت فيه حكومات الغرب تعتبر مجرد التنويه بالبلشفية جريمة لا تغتفر وتآمراً على قلب نظم الحكم يعاقب عليه بالنفى والتشريد .

ولما فرغت كل من تركيا وروسيا من تثبيت قواعد نهضتها الثورية فى بلادها، وبانت ثمرات الإصلاحات الداخلية الشاملة فى البلدين، كانت آثار النظم الفاشية والنازية قد ظهرت واضحة لكل ذى عينين، وبدا للشعوب أن المواثيق والمبادى

التى أعلنتها عصبة الأمم لن تغنى فتيلا عن الحرب المتوقعة ، وأيقن ستالين أن بلاده مستهدفة لعدوان النازية عاجلا أو آجلا إن لم يكن من ناحية هتلر فى الغرب فمن ناحية اليابان فى الشرق ، وقد تنمرت اليابان على الصين واغتصبت منها منشوريا فى سنة ١٩٣١ متحدية فى ذلك عصبة الأمم. وكذلك أيقن كمال أتاتورك أن تركيا معرضة لخطر داهم من ناحية موسولينى والفاشية، وأن مصلحة البلدين تركيا ورسيا تقضى عليهما بالخروج من العزلة الدولية التى فرضاها على نفسيهما. حتى لقد بلغ الأمر بكمال أتاتورك أن يهجر إسطنبول نهائيًا ويتخذ عاصمته أنقرة ، وحتى لقد كادت الدول تعتبر الدولتين آسيويتين ، وأخيراً نبذت كلتا الدولتين سياسة العزلة .

أما الروسيا فقد ظفرت فى سنة ١٩٣٤ بمكان دائم فى مجلس العصبة، ثم دخلت مع كل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا فى معاهدة ، وكانوا جميعاً يخشون عدوان ألمانيا على أراضيهم. وبدأ ستالين مشروع السنوات الخمس مرة بعد مرة، حتى شهد العالم وهو مشدوه مبهوت إحدى معجزات القرن العشرين الاقتصادية حين رأى روسيا تتحول إلى بلاد صناعية تنتج ما تحتاج إليه البلاد حربيًا واقتصاديًا إلى جانب نهضة زراعية اجتماعية وثقافية أصبحت مضرب الأمثال فى مداها وكفايتها؛ فكأنما كان ذلك كله فى سرعته سحر ساحر لا مجهود بشر !

وأما تركيا فواصلت نهضتها الصناعية والثقافية أيضاً ، واتجهت فى سياستها الخارجية خطة مبتكرة ما لبثت أن رفعتها إلى مكان الزعامة بين دول البلقان والشرق الأوسط . وقد بدأت تركيا خطتها هذه بأن عقدت معاهدة صداقة مع الإغريق ، ثم أقنعت دول البلقان بأنه لا فائدة ترجى لهم من الاستناد إلى دولة من الدول الكبرى وأن نضجهم السياسى وحرصهم على عدم الانزلاق فى منحدر المنافسات الدولية يحتمان عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم أولاً ، وأن يتحدوا جميعاً ليكونوا صفًا واحداً امام كل عدوان . وعلى أساس هذه الخطة تكوّن اتحاد البلقان سنة ١٩٣٤ ، ولم تشذ سوى ألبانيا وكانت فى سياستها تابعة لإيطاليا ، وبلغاريا وكانت لها مطامع ترمى إلى تحقيقها من وراء عدم التمسك بالحالة القائمة .

ثم التفتت تركيا إلى الشرق الأوسط فوثّقت علاقاتها مع إيران الجديدة وجعلت تسعى بالصلح بين أعضاء الأسرة الشرقية الإسلامية حتى تم تكوين

ميثاق سعد اباد فى سنة ١٩٣٧ بين تركيا والعراق وإيران وأفغانستان على الأسس نفسها التى قام عليها ميثاق البلقان .

ولما شرعت إيطاليا تتحدى العصبة وتعتدى ظلماً على أثيوبيا وتبعتها ألمانيا باحتلال إقليم الرين وتحصينه وإعلان الخدمة الإجبارية مخالفة بذلك نصوص معاهدة فرسايل وميثاق لوكارنو ولم تقو العصبة على رد عدوان إيطاليا او كبح النزعات الجامحة فى ألمانيا — انتهزت تركيا الفرصة لتعديل معاهدة لوزان واسترداد كامل حقها فى تحصين المضايق وتسليحها حتى لا يتعرض أمنها وسلامتها لعبث دولة مهاجمة كإيطاليا مثلا . وكانت العلاقات بين روسيا وتركيا لم تزل ودية ، فأيدت روسيا تركيا فى طلبها هذا لتكون حارسة لها على البواغيز فتمنع تسرب أساطيل الأعداء إليها . وكان من صالح انجلترا كذلك أن يكون أصدقاؤها فى البحر المتوسط مسلحين وبمأمن من هجمات العدو المشترك .

وعلى ذلك عقد مؤتمر مونترو سنة ١٩٣٦ بين تركيا وبريطانيا وفرنسا واليابان وروسيا وباقى دول البلقان ، وقرروا إلغاء القيود الدولية التى وضعت فى مؤتمر لوزان بشأن الرقابة على المضايق ، ونص فيه على حق تركيا فى تسليحها وتحصينها كما تريد . ومع أنه قد نص فى المعاهدة على أن دول البحر الأسود لها حق مرور أساطيلها فى المضايق — ومن هذه الدول روسيا طبعاً — فان المعاهدة أبقت حق التصريح بالمرور ومنعه بيد تركيا نهائيا تستعمله كما تشاء سواء فى السلم أو فى الحرب ، وهذا ما يضايق روسيا ويقض مضجعها الآن .

ولما اكفهر الجو الدولى فى أوربا وأوشكت أن تندلع شرارة الحرب العالمية الثانية كانت العلاقات بين روسيا وتركيا قد بدأت تتوتر ، فقد ارتابت روسيا من سياسة تركيا حين وثقت الروابط بينها وبين إيران وتزعمت اتحاد سعد اباد فى حين كانت روسيا تطمع أن تبسط نفوذها على الأقاليم الإيرانية المتاخمة لجمهوريات السوفييت ، وترنو ببصرها إلى حقول البترول فى الشرق الأوسط ، لتدخر مواردها من بترول القوقاز . وكذلك ساءها من تركيا انها تزعمت دول البلقان وكادت تخلق اتحاداً سلافيا إذا كان الغرض المباشر منه منع إيطاليا من العدوان فما لا شك فيه أنه سيقوى على مر الزمن ويقف حجر عثرة فى طريق روسيا نحو الجنوب . ومنذ نشأت هذه الريبة بين الدولتين سارت كل منهما على النهج الذى اختطته لنفسها ، فلم نعد نلحظ فى خططهما ذلك التناسق الذى كان يبدو جليًّا فى

الماضى . فبينما كانت تركيا ترتبط بمعاهدة الصداقة وتبادل المساعدة مع بريطانيا فى سنة ١٩٣٦ كانت روسيا لم تزل حائرة مترددة بين ألمانيا وبريطانيا ، وكانت بريطانيا تعرض عليها الدخول فى الحرب على حين كانت ألمانيا لاتريد منها سوى التزام الحيدة ، وعلى ذلك آثرت التعاقد مع ألمانيا .

ثم نشبت الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ فأعلنت تركيا حيدتها وأخذت تحيط نفسها بما يؤكد هذه الحيدة ، فعقدت مع روسيا معاهدة عدم الاعتداء ، كما عقدت مع انجلترا وفرنسا معاهدة تقضى بمساعدتها إذا هاجمتها دولة أوربية . ولما رجحت كفة ألمانيا فى أوائل الحرب عقدت معها تركيا سنة ١٩٤٠ معاهدة صداقة وتبادلتا أهم ما كان يلزمهما ، فأخذت تركيا عُدَداً ومهمات حربية وأعطتها به معدن الكروم الذى كانت ألمانيا فى مسيس الحاجة إليه فى ذلك الوقت . وحاولت روسيا وقتئذ أن تقنع تركيا بفتح البواغيز لأساطيلها ، فأرسلت دعوة إلى رئيس الوزارة التركية لزيارة موسكو ، ولكن تركيا تمسكت بتعهداتها الدولية ولم تستمع لنداء صديقتها القديمة .

ثم تطورت الحرب وانتقلت خطاها إلى الشرق ، ومضت ألمانيا تخضع حكومات البلقان واحدة بعد أخرى . وخيل للناس أن تركيا لابد داخلة الحرب إلى جانب الحلفاء تنفيذاً لميثاق البلقان . ولكن دخول تركيا الحرب فى ذلك الوقت لم يكن فى صالح الحلفاء ؛ فقد كانوا فى حاجة قصوى إلى السلاح ولم تكن تركيا فى حالة تمكنها من مقاومة الألمان طويلا ، فلو أنها دخلت الحرب لاستطاع الألمان بسهولة أن يأخذوها ممرًّا إلى آسيا ويهددوا قناة السويس وخليج العجم فى آن واحد .

لذلك قبضت تركيا على حيدتها وكانت فى موقفها كالقابضة على الجمر ؛ فقد كانت ترى بعينيها مصارع الشعوب التى داستها النازية بأقدامها الحديدية فتجفل وترتاع .

ثم دخلت الحرب فى أهم أطوارها فى صيف سنة ١٩٤١ إذ هاجم الألمان روسيا وأصبح من صالح الحلفاء أن يمهدوا طريقا للاتصال بها حتى يمدوها بما تحتاج إليه فى كفاحها من سلاح وغذاء ، وكان طريق المضايق إلى البحر الأسود هو أقرب السبل إلى روسيا ، فحاولوا إقناع تركيا بفتح الدردنيل والبسفور لسفنهم ، فأبت تركيا عليهم ذلك كما أبت على روسيا حينما كانت محالفة لألمانيا واضطر الحلفاء إلى الاتصال بروسيا ، إما عن طريق خليج العجم فإيران

والقوقاز ، وإما عن طريق البحر المتجمد من الشمال ، وكلا الطريقين وخاصة الثانى منهما طويل محفوف بالأخطار . ثم اشتد الضغط الألمانى على روسيا ، وكادت ألمانيا تصل إلى آبار البترول بالقوقاز وباطوم ، وكان مما ينقذ روسيا أن تدخل تركيا الحرب فتهدد الجناح الأيمن للجيش الألمانى الذى كان يستند إلى البحر الأسود ، ولكن عبثا حاول الحلفاء إقناع تركيا بالخروج من حيدتها ، وبقيت كذلك إلى أن لاحت فى الجو بوادر النصر للحلفاء ، وبدأ الرؤساء يجتمعون فى مؤتمرات موسكو والقاهرة وطهران فى أواخر سنة ١٩٤٣ ودعى الرئيس إينونو إلى التحدث معهم فى القاهرة ، وحينئذ قبلت تركيا أن تمنع تصدير معدن الكروم إلى ألمانيا ، ولكنها لم تعلن الحرب إلى جانب الحلفاء إلا فى النهاية ، ليتسنى لها أن تشترك مع سائر الأمم المحاربة فى مؤتمر سان فرنسسكو .

ونقمت روسيا على تركيا موقفها الجامد فى إبان محنتها الكبرى ، فانقلبت الصداقة القديمة بينهما إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين فى العهد القيصرى من جفاء ومرارة وعداء مستحكم . لذلك لم يكن مستغربا أن تنذر روسيا تركيا فى مارس سنة ١٩٤٥ برغبتها فى إعادة النظر فى معاهدة منترو وأن تتوتر العلاقات بين الحكومتين بدرجة استرعت اهتمام الدول . وتقضى المادة ٢٨ من معاهدة منترو بأن مدة المعاهدة عشرون سنة ، ولكن المادة ٢٩ تجيز للدول أن تطلب تعديل موادها فى كل خمس سنوات من تاريخ سريانها ، وعلى ذلك تكون المعاهدة قابلة للتعديل فى سنة ١٩٤٦ وقد انقضت عليها فترتان .

ويبدو أنه لن تستطيع تركيا أو أية دولة أخرى بعد أن خرجت روسيا من الحرب ، وهى أقوى دولة حربية فى أوربا ، بل لعلها فى العالم — أن تحرمها حق المرور فى المضايق بأساطيلها دون أن تستأذن فى ذلك تركيا . فلم تعد روسيا تخشى مهاجمة الدول كما كانت فى الماضى . بل هى على العكس يهمها الآن أن تفتح أبواب المضايق لتتصل بسياسة البحر الأبيض المتوسط الذى برهنت الحرب الأخيرة على أنه المركز الرئيسى للنشاط الحربى العالمى . وقد بدأت روسيا تطالب بنصيبها فى قواعده الاستراتيكية ، فأخذت مكانها إلى جانب انجلترا وفرنسا وأمريكا فى منطقة طنجة الدولية ، وجعلت تطالب بالوصاية على طرابلس ، ويقولون

إنها تطالب بمقعد فى مجلس إدارة قنـاة السويس كما كانت تريد إيطاليا الفاشية ، وبقاعدة حربية فى منطقة المضايق نفسها .

ولن ترضى روسيا أن تستعيد تركيا مكانتها فى البلقان ، فستعمل روسيا على أن تكون لها الزعامة بين الشعوب السلافية، لتكون مقامها بينها كمقام الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية ، بفارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا تتمتع باستقلالها وبسيادتها التامتين ، اما حكومات البلقان فتريدها روسيا وفق نظامها وعلى هواها .

وتلقى تركيا الآن أشد العنت من جانب روسيا ؛ فهى تهددها من ناحية البلقان ، وقد نشرت نفوذها على حكوماتها جميعاً وخاصة بلغاريا التى لا تزال تحلم « بأدرنة » ، وتهددها كذلك من ناحية إيران . فان حدود تركيا من جهة الشرق تتاخم أذربيجان ، وإذا نجحت روسيا فى فصل هـذا الإقليم من جسم إيران فستكون روسيا سـدًا حائلا بين تركيا وإيران ، فلا يبقى بين الدولتين ذلك الاتصال الوثيق الذى ساعد على تأليف ميثاق سعد اباد ، وستبذل روسيا جهدها لمنع تجديد هذا الميثاق أو وصله بالجامعة العربية حتى لا تسترد تركيـا زعامتها القديمة .

وهناك جورجيا وأرمينية وكلتاهما من جمهوريات السوفييت ، وهما تطالبان تركيا بإعادة قارص وأردهان وأرتيفان . وكانت روسيا فى سنة ١٩٢١ قد رضيت بانضمام هذه الأقاليم إلى تركيا بعد استفتاء أهلها . على أن هذه الأقاليم كانت تحت يد تركيا قبل سنة ١٨٧٨ حين استولت عليها روسيا ، فاحتفاظ تركيا بهـا الآن لايعدو أن يكون استرداداً لبضاعتها . والأتراك مصممون على الدفاع عن حقوقهم وعن أرض الوطن شبراً فشبرا . وإذا أصرت روسيا على اقتطـاع هذه الأقاليم وتعديل معاهـدة منترو وفق مصلحتها وعلى غير ما ترضى به تركيا ، فلن يمضى وقت طويل حتى تظهر فى أفق السياسة العالمية « مسألة شرقية » جديدة تختلف من أجلها الدول وتناضل فيها تركيا وتقف منها كما وقفت فى سـنة ١٩١٩ لا كما كان يقف الرجل المريض فى الماضى . وسترى روسيا حينئذ أنهـا أمام صخرة قُـدَّتْ من عزمات أتاتورك العظيم .

محمد رفعت